المستشرقون... والسنة المطهرة

ترتبط السنة المطهرة بالقرآن ارتباطًا وثيقًا لا يمكن أن يتصور – مجرد تصور – أن تنفك عراه البتة، وهذا يفهم من صريح القرآن الكريم: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[1].

ومن بدائه الأمور أن يقال إن السنة تمثل بالنسبة للقرآن: المفصلة لمجمله، والمبينة لمشكله، والباسطة لمختصره[2]. ومن بدائة الأمور أن يقال – كذلك – إن السنة هي الأصل الثاني للإسلام، وإنها وحي الله إلى الناس بلغه رسول الله ﷺ، وأمرنا أن نتمسك به، ونحافظ عليه: قال ﷺ: «تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي».

لكن بعض رجال المؤسسة الاستشراقية المتجافين عن أبسط قواعد البحث العلمي المرعية وأصوله المقررة، حاولوا – في هجمة منكرة فاضحة – التشكيك في السنة..، ولم يألوا جهدًا، ولم يدخروا وسعًا في ذلك؛ بغية هدمها ونقضها وطمسها[3]، وهي محاولات مأجورة ومشكورة من قبل رجال التبشير والاستعمار معًا.

---

(1) سورة النحل 44.

(2) الشاطبي: الموافقات ج1 ص12.

وانظر لنا بالاشتراك مع الشيخ الدكتور يوسف القرضاوي (علاقة السنة بالقرآن) نشر ضمن كتاب اليونسكو عن (أسس الإسلام) وقد ترجم إلى لغات الأمم المتحدة الخمس

(3) للتعرف على مزيد من التفاصيل عن دراسات المستشرقين للسنة المطهرة انظر:

- A. Guillaume The traditions of Islam: an Introduction to the Study of The Hadrth literature. Oxford. 1924.

- Juynboll، The Authenticity of The Tradition Literature Discussions In Modern Egypt Leiden، 1968,

- J, Schacht, Revelation of Islamic Traditions، Jras, 1949,

- Ignaz Goldziher. Moslim Studies. London 1967_1971 2vols.

يرى مكسيم رودنسون «أن علماء المسلمين الثقات قد ردوا عددًا كبيرًا من الأحاديث، ومع ذلك فإن المنهج الذي استخدموه في ذلك لا يرضى عنه المستشرقون اليوم. وتبدو الأحاديث التي قبلها العلماء المسلمون ليست أكثر وثاقة- في نظر المستشرقين- من تلك الأحاديث التي ضعفوها»[1].

ولنقف أمام محاولتين ثنتين- رغم الكثرة الكاثرة- وهما محاولتا المستشرقين اليهوديين (جولدزيهر) و (جوزيف شاخت)...، والحق يقال: إن أول وأكبر مستشرق قام بمحاولة واسعة شاملة للتشكيك في الحديث النبوي، كان المستشرق اليهودي جولدزيهر- الذي يعده تلاميذه من المستشرقين والمستغربين على السواء- أعمق العارفين بالحديث النبوي.. يقول عنه كاتب مادة الحديث النبوي في دائرة المعارف الإسلامية (يوهان فك Fueck)[2]... «إن العالم مدين دينًا كبيرًا لما كتبه (جولدزيهر) في موضوع الحديث، وقد كان تأثيره على مسار الدراسات الإسلامية الاستشراقية أعظم مما كان لأيّ من معاصريه من المستشرقين، فقد حدد تحديدًا حاسمًا اتجاه البحث في هذه الدراسات وتطوره»[3].

(1) مكسيم رودنسون مرجع سابق ص42.

(2) يوهان فك في كتابه (عن الدراسات الاستشراقية في أوروبا) الصادر في ليبزج سنة 1955م ص231، عن الاستشراق للدكتور زقزوق ص101.

(3) ويرى ألبرت حوراني أن جولدزيهر المستشرق اليهودي أعظم رمز في تكوين وصياغة التصور الأوروبي عن الإسلام في تطوره وطبيعته كنظام ثقافي وديني ويضيف الدكتور ألبرت أن الطبيعة اليهودية ومستقبل اليهود كانتا الشغل الشاغل للمستشرق جولدزيهر، وهو نفسه يخبر بذلك قائلًا: « إن اليهودية نبض حياتي» «judaism was the pulse - beat of my life»
يذكر ألبرت حوراني أن جولدزيهر قد عمل سكرتيرًا عامًّا للطائفة اليهودية في بودابست، وأنه قد كانت لديه معرفة عميقة بالتلمود والآداب العبرية..
انظر: (الإسلام في الفكر الأوروبي) ص36 - 41.
وكان جولدزيهر يرى أن الإسلام قد انتشر بالقوة الخارجية فحسب، وذلك قبل أن تتشكل مبادئه الأساسية وتأخذ شكلًا محددًا. (فكرته عن التطور الإسلامي) انظر مكسيم رودنسون: بحث نقدي في الدراسات الحديثة عن محمد، ص123 - 124.

ويلخص المستشرق (فانمولر Pfanmueller) عمل جولدزيهر الخارق!! قائلًا: «لقد كان جولدزيهر أعمق العارفين بعلم الحديث النبوي...، وقد تناول في القسم الثاني من كتابه (دراسات محمدية) موضوع تطور الحديث تناولًا عميقًا، وراح- بما له من علم عميق، واطلاع يفوق كل وصف- يبحث التطور الداخلي والخارجي للحديث من كل النواحي، وقد قادته المعايشة العميقة لمادة الحديث الهائلة إلى الشك في الحديث النبوي، ولم يعد يثق فيه، مثلما كان (دوزي) ولا يزال يفعل ذلك في كتابه: (مقال في تاريخ الإسلام).. وبالأحرى: كان جولدزيهر يعتبر القسم الأعظم من الحديث بمثابة نتيجة لتطور الإسلام الديني والتاريخي والاجتماعي في القرنين الأول والثاني. فالحديث- في رأيه- لا يعد وثيقة لتاريخ الإسلام في عهده الأول: عهد طفولته، وإنما هو أثر من آثار الجهود التي ظهرت في المجتمع الإسلامي في عصور المراحل الناضجة لتطور الإسلام... ويقدم جولدزيهر مادة هائلة من الشواهد لمسار التطور الذي قطعه الإسلام في تلك العصور التي تم فيها تشكيله من بين القوى المتناقضة، والتباينات الهائلة، حتى أصبح في صورته النسقية...، ويصور جولدزيهر التطور التدريجي للحديث، ويبرهن بأمثلة قاطعة كيف كان الحديث انعكاسًا لروح العصر، وكيف عملت على ذلك الأجيال المختلفة وكيف راحت كل الأحزاب والاتجاهات في الإسلام تبحث لنفسها - من خلال ذلك - عن إثبات لشرعيتها بالإشارة إلى مؤسس الإسلام، وأجرت على لسانه الأقوال التي تعبر عن شعاراتها»[1].

وبهذه الطريقة- فيما يرى- أمكن اختراع أو وضع الأحاديث الكثيرة..، وعلى سبيل المثال عندما اشتدت الخصومة بين البيت الأموي والعلماء الصالحين، راح العلماء يخترعون الأحاديث لمحاربة الطغيان والظلم. وراح علماء السلطة يضعون الأحاديث التي تخدم وجهتهم. والأمر لم يقف عند وضع الأحاديث في

(1) عن الدكتور زقزوق: الاستشراق ص102.

الأغراض السياسية، بل تعداه إلى الوضع في النواحي الدينية... في أمور العبادات التي لا تتفق مع ما يراه أهل المدينة، وقد استمر هذا الحال في وضع الأحاديث في القرن الثاني أيضًا[1].

ويلخص (مكسيم رودنسون) عمل (جولدزيهر) قائلًا: «قد كان إجناس جولدزيهر واحدًا من أوائل المستشرقين الغربيين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة البحث في هذه المشكلة، ولقد بين بشكل منهجي كيف أن هذه الأحاديث قد زورت وزيفت في العصور الوسطى لمصلحة العشيرة، أو المذهب، أو الحزب السياسي لمناصرة المعتقد الأيديولوجي أو لحساب المصالح العملية[2].

أما الدكتور ألبرت حوراني فيرى «جولدزيهر» «قد طبق المناهج النقدية التي تعلمها في ألمانيا (التي نقد العلماء الغربيون بها أسفار الكتاب المقدس وتوصلوا بها إلى أن هذه الأسفار قد لحقها التحريف والتبديل والزيادة والنقصان) على النصوص الأساسية للإسلام؛ على الحديث النبوي خصوصًا، وأنه نظر إلى هذا الحديث ليس على أنه النص الذي وصلنا عن الرسول وصحابته دونما تغيير، ولكن على أن الأحاديث مجموعة من الكتابات قد وضعت بشكل تدريجي عبر أجيال عديدة.

لذلك فهي لا تقبل على أنها تسجيل لما قاله أو نقله محمد. ومن الأمور ذات القيمة الأساسية في هذا الصدد إلقاؤه الضوء على النزاعات السياسية والدينية في القرن الأول الهجري. إذ أن لهذا التبصر في أحداث القرن الأول الهجري أثر عميق على كل الدراسات المتأخرة لعلم الكلام أو التشريع الإسلامي[3].

---

(1) الدكتور مصطفى السباعي: «السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي» ص19 – 191، نشرة 1978، وانظر الدراسة الموسعة عن (الوضع في الحديث النبوي) التي أعدها الدكتور عمر حسن فلاته، بجامعة الأزهر، ونشرت في ثلاثة مجلدات، مكتبة الغزالي، بيروت، 1981م.

(2) M. Rodinson. A Critical Survey... P. 42.

(3) 1. Goldziher. Muslim studies. London. 1961 Vol 2 PP. 17 – 251.
A. Hourani. Islam in European Thought.

ولقد عبر جولدزيهر عن وجهة نظره المفصلة عن الكيفية التي تطور بها الإسلام كنظام ديني في سلسلة من المحاضرات كتبها سنة 1907م وكان ينوي إلقاءها في للولايات المتحدة الأمريكية، لكن لم يلقها، ثم طبعت في كتاب بعنوان: Intro-duction to Islamic Theology and Law، Princeton. 1981.

هذا عن جولدزيهر، أما (جوزيف شاخت) فقد سار على خط موازٍ له تمامًا، كما أن المنزلة التي وصل إليها شاخت بين المستشرقين لم يصل إليها أي مستشرق، وقد نشر كتابًا بعنوان (المدخل إلى الفقه الإسلامي) Introduction to Islamic Law كما نشر كتابه المشهور: «The Origins of Muhammadan Jurisprudence» أصول الشريعة المحمدية» وقد حاز هذا الكتاب على تقدير عامة المستشرقين، وتتلمذ عليه نفر غير قليل منهم، وقد أثر تأثيرًا عميقًا في كل من (أندرسون) و (روبسون) و (فيزجيرالد) و (كولسون) و (بوزورث) كما كان لأوهام شاخت تأثير بالغ على من تثقفوا بالثقافات الغربية من المسلمين.

وعن تقدير شاخت، استمع إلى (كولسون) أستاذ الفقه الإسلامي في جامعة لندن، وهو يقول: «إن شاخت صانع نظرية عن أصول الشريعة الإسلامية غير قابلة للدحض في إطارها الواسع». أما (جب) فيرى أن هذا الكتاب، سيصبح أساسًا في المستقبل لكل دراسة عن حضارة الإسلام وشريعته على الأقل في العالم الغربي. أما خلاصة آراء (شاخت) ومحصلتها النهائية، فقد ذكرها في (المدخل) قائلًا: «من الصعوبة اعتبار حديث من الأحاديث الفقهية صحيح النسبة إلى النبي، ذلك أنه في الجزء الأكبر من القرن الأول لم يكن للفقه الإسلامي – في معناه الاصطلاحي – وجود كما كان في عهد النبي. والقانون – أي الشريعة – من حيث هي هكذا، كانت تقع خارجة عن نطاق الدين، وما لم يكن هناك اعتراض ديني أو معنوي أو روحي على تعامل خاص في السلوك؛ فقد كانت مسألة القانون (الشريعة) تمثل عملية لا مبالاة بالنسبة للمسلمين»[1].

(1) Gibb: Journal of Comparative Legislation of an International Law 33 PP. 144.
عن بحث الدكتور مصطفى الأعظمي في (مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية) ص68، 108.

هذه النظرية تمثل أساسًا لكل كتابات شاخت، ومن أخذ عنه، فإذا كانت الشريعة أو القانون تقع خارجة عن نطاق الدين، وكان النبي غير مكترث لها، وكذلك، المسلمون الأوائل من الصحابة والتابعين، فإن ما سجلته المصادر مما يشير إلى جهد متواصل من النبي ﷺ، ومن جاء بعده من الصحابة، يكون كذبًا مختلقًا في رأي شاخت[1].

وهذا الإفك الرامي إلى عدم صحة حديث واحد من الأحاديث الفقهية المنسوبة إلى الرسول ﷺ يؤدي إلى أهداف كثيرة مبتغاة من المستشرقين تتمثل في:

1 – إن مطالبة الشعوب الإسلامية ورغبة بعض الحكام في العودة إلى الشريعة الإسلامية لا أساس لها لأن الشريعة في حقيقتها خارجة عن نطاق الدين.

2 – ما يسمى بالفقه الإسلامي ليس مبنيًّا على كتاب الله وسنة رسوله؛ لأنه لا يوجد ما يمكن تسميته سنة النبي، بل إن جزءًا غير قليل من الفقه الإسلامي مأخوذ من شرائع اليهود والكنيسة وديانات أخرى، عدا اجتهادات المجتهدين.

كما أن شاخت يزعم أن أكبر قدر من أسانيد الأحاديث اعتباطي... «ومعلوم لدى الجميع أن الأسانيد بدأت بشكل بدائي، ووصلت إلى كمالها في النصف الثاني من القرن الثاني في الهجرة.. وكانت، الأسانيد كثيرًا ما تجد أقل اعتناء.. وأي حزب يريد نسبة آرائه إلى المتقدمين كان يختار تلك الشخصيات ويضعها في الأسانيد»[2].

هذا الذي يزعمه شاخت قريب– في غرابته– من كلام المستشرق (منجانا) الذي رفض فيه أن يكون القرآن الكريم مكتوبًا في القرن الأول الهجري؛ لأن يوحنا الدمشقي– خصم المسلمين في سوريا في أواخر القرن الهجري الأول– لم يذكر أن لدى المسلمين كتابًا[3].

---

(1) نفس المصدر ص34.

(2) Schacht :Foreign elements in anccient Islamic Law PP. 136 – 64.

(3) الدكتور الأعظمي ص89 المرجع السابق.

ثم يتجنى شاخت على الإمام الشافعي ويتهمه بالتحريف والبعد عن الأمانة العلمية، ويختلق أمثلة كثيرة على ذلك[1].

هذا، ولن نقف عند نقد المستشرق اليسوعي البلجيكي «هنرى لامانس» للحديث النبوي؛ لأنه لم يكن نقدًا علميًّا بشهادة المستشرقين أنفسهم مثل «مكسيم وودنسون» الذي يقول عنه: «ثم وجه «هنرى لامانس» نقدًا متطرفًا Radical Criti-cism للسنة؛ خصوصًا ذلك الجزء الذي يتعلق بسيرة الرسول،.. ثم يقول:

«ولقد تبنى هنرى لامانس البحث الذي بدأه جولدزيهر والأفكار التي طرحها، وتطرف في التحليل النقدي للحديث النبوي عند المسلمين غاية التطرف. وكشف القناع بلا هوادة عن تلك الاتجاهات السياسية المتأخرة الكامنة خلف الروايات، التي أعادت تقدير أعمال وأقوال الرسول وأصحابه.

وقد سخر لامانس بلا تحفظ تلك الأساليب النقدية التي استخدمها علماء القرن التاسع عشر (في الغرب) ضد عقيدته الخاصة، في دراساته القاسية اليائسة للحديث النبوي الزائف (في رأيه) [2] كما أن منتجمري واط يجزم بأن كثيرًا من حكمة الشرق الأوسط، والحكمة العربية القديمة ونصوصًا من العهدين القديم والجديد قد وجدت طريقها إلى الإسلام؛ وإلى السنة... ومن المحتمل أن يكون العلماء المسلمون المعتدلون هم الذين سلكوا طريق وضع الأحاديث أولًا، ثم أكمل المتشددون الشوط... [3].

(1) Schacht, Origins PP 321 – 22.

(2) M. Rodinson: A critiaci survey.. P. 26.

(3) M, Watt، Islam and Integration of society، London 1961,
" It is hardly too much to say that all the wisdom of the Middle East. became Incorporated Into the traditions - ancient Arab wlsdoms ,sentences from Old and New Testaments, Neoplatonic and Gnostic doctrines and maxims from Persia and India... Much of this material was clearty inconsistent'wlth Islam and must have worried the leaders of the main body of moderate Muslims but those who believed in one or the other part of it saw that by passing if

وعن موقف المستشرقين من شخص الرسول ﷺ ومناقشة مفترياتهم، يمكن مراجعة ما كتبه الدكتور السباعي في (السنة ومكانتها في التشريع) وما كتبه الدكتوران عماد الدين خليل، وجعفر شيخ إدريس في كتاب (مناهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية)، كما يمكن مراجعة طرف من بحوث المستشرقين عن السنة في كتاب العقيقي[1]. وما كتبه الدكتور مصطفى الأعظمي في دراساته عن السنة المطهرة.

وأختم هذا المبحث بحديث للمستشرق المعروف (رينولد نيكلسون) عن الرسول محمد ﷺ جاء فيه: «.... سأسلم مبدئيًّا بصدق محمد في دعواه (النبوة) وبحقيقة نبوته؛ وهي مسألة طالما شك فيها الناس أو أنكروها. وحجتي في ذلك أولًا أنها من المسائل التي أجمع عليها المسلمون، وثانيًا لأنني أعتقد أن أي فرد يخالف هذا الرأي يعجز عن أن يفسر نشأة الإسلام وتاريخه الأول. نعم من السهل أن نتبين الموقف المتناقض الذي وقع فيه الرسول بدعواه أن ما أنزل عليه كان وحيًا من السماء مقررًا لا تغير فيه، وأنه لم يكن إلا واسطة في نقل هذا الوحي إلى الناس، بينما اقتضت الأحداث والظروف التي أحاطت به أن يكون ذلك الوحي من المرونة بحيث يفي بمطالبه وحاجاته. فلو كان محمد دعيًّا، لحق لنا أن نتعجب من قصر نظره، ولو كان صادقًا لحق لنا أن نعترف بقصر باعه في النبوة[2].

---

off as coming from Muhammad, they Justified their own practices of forging Hadith was begun by the moderates belief In it... it Is likely that the and continued by the eccentrics. Then the moderates borrowed it from the eccentrics. it Is difficult for modem westerners to realize how hard It was for the ancient Islamic culture working with different categories based on oral materials dealt with a situation like that In an oral culture, once a story has been passed around, it is remembered If it Is a good one whether It is true or not and attempts to deny It are regarded as due to ulterior motives. (p. 226)

(1) المستشرقون ح3 ص541 – 546.

(2) R, A, Nicholson، The Idea of Personality in Islam، Lahore، 1970, P,6,

أما المستشرق (هاملتون جب فيري أن محمدًا ﷺ هو الذي ألف أو لفق الإسلام من عند نفسه، وتصرف في ذلك بحرية تامة[1].

وهذا نص عبارة نيكلسون:

« I am going to take for granted what has often been doubted or denied - the sincerity of Mohammad and the reality of his prophetic Inspiration – partly because it is a point on which all Muslims are agreed and slso because It seems to me that on no other hypothesis can the origin and early history of Islam be accounted for. It is easy to emphasise the contradictions into which he was drawn by his postulate of a fixed and immutable revelation. written in a heavenly book and communicated to him by a process in which he was merely the passive medium. while the courae of evente constantly required that the revelation ahould be plastic and responsive to his needs. If he was an Impostor. we can only wonder at his lack of foresight; but If he waa aincer. it must be admitted that his prophetic endowment was not of the highest order «

(1) Hamilton A.R. Qibb. Studies on the Civilization of Islam. Edited by S.J Shaw and W.R. Polk. London. 1962. Lahore 1987. P. 212.

وقد جمع الناشران خمس عشرة دراسة لهاملتون، بعضها في غاية الأهمية والخطورة مثل:

- The Reaction In the Middle East Against Western Culture Paris. 1951.
- The Structure of Religious Thought In lalam. (The Muslim world. 38. Hartford. Conn.1948)
- Some Considerations on the Sunni Theory of the Caliphate. Paria. 1939.
- The lslamic Background of Ibn Khaldun›a Political Theory. London. 1933.
- An Interpretation of Islamic History. 1950.
- The Evolution of Government in Early Islam. Paris. 1950.
- The Armies of Saladin. 1951
- The Achievement of Saladin. Manchester. 1952.

obeikandi.com